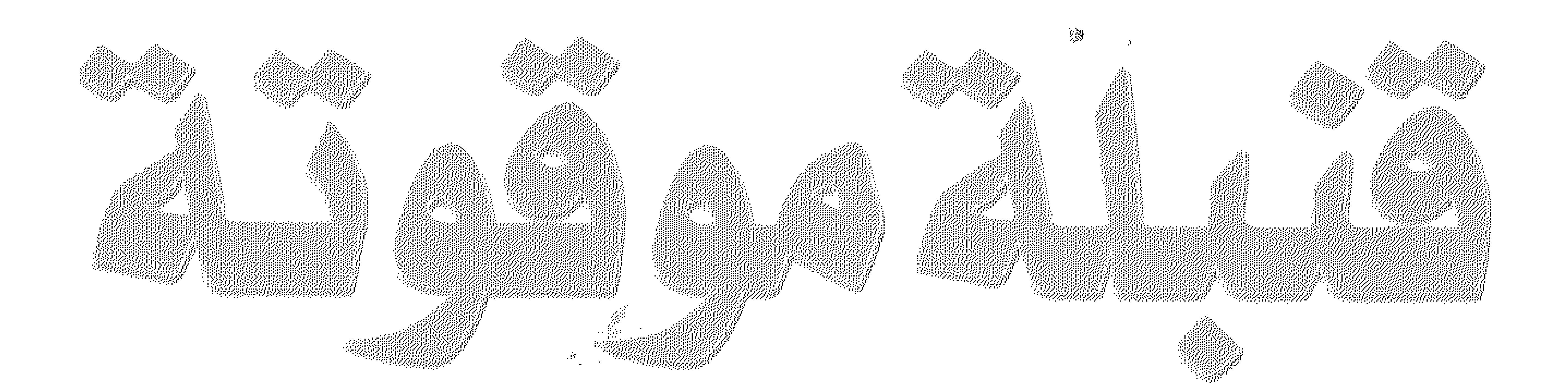
كتاب الشباب



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

قنبلة موقوتة

بقلم:

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

قنبلة موقوتة – الرياض

٣٤ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٧–٣٨–٤٠–٩٩٦٠

١– القصص القصيرة العربية – المغرب أ– العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٦٤ ٢٢/٢٨١٥

رقم الإيداع: ٢٢/٢٨١٥ ردمك: ٧–٣٨–٤٠–٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض – العليا – طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



استيقظ رائفُ حمدانُ على صرخةٍ عاليةٍ شقَّت هُدوءَ الليلِ. فتح عينيْه وأرهفَ سمعَه ليعرف مصدرَها. وعلتْ الصرخةُ الثانيةُ فأدرك أن الصوتَ صوتُ أُمه! نزل من غرفةِ نومه بالطابقِ الأعلَى حافيًا يقفزُ الدرجاتِ مَثْنَى وثُلاثَ.

وفي غرفةِ أبويهِ فُوجئ بمشهَد مُرْعِبٍ! أبوه رِضَى حمدانُ مُلقْىً على ظهرِهِ على الأرضِ يشخُرُ شخيرًا عاليًا، ويضُمُّ صدرَه بذراعيه، وأمُّه تلطِمُ خدَّيْها وتُوَلْوِلُ...

- رائفُ! أدركْ أباك! إنه يموتُ!

دار رائفُ حولَ جسدِ أبيهِ المكوَّرِ الضخمِ لا يدري ما يفعلُ. فقد كان في حوالي السادسة عشرةَ، ولا تجربةَ له مع مثلِ هذه المفاجآت. فوضع وسادَةً تحت رأ سِ أبيه، وانحَنى عليه يناديه ليسأَلَه عما ينبغي أن يفْعَلَهُ:

- أبي ! أبي!

والأبُ لا يجيبُ...

وفجأةً عادت إليه المعلوماتُ التي كان أخذَها من مُدرِّبِ سباحةٍ في مخيَّمٍ صيفيٍّ وهو في السابعةِ. فقفزَ من مكانهِ

وارتمَى على الهاتفِ، وأدار رقم أقربِ عيادةٍ إلى المنزلِ، وأخبرَ حارسةَ الليلِ بحالةِ والدِه، وأعطاها العنوانَ ورقمَ الهاتفِ، وعاد إلى والدِه، وجثَا بجانبِه، وأخذ يدلِّكُ صدرَه بِكلتا يديهِ.

ولم تمضِ إلا دقائقُ قليلةٌ حتى وقفت سيارةُ الإسعافِ بالبابِ. وكان هو في انتظارِها، فصحِبَ الممرِّضين إلى غرفةِ النومِ، وهناك وضَعا المريضَ فوق مِحفَّةٍ، ونزلا به إلى سيارةِ الإسعافِ التي انطلقتْ به وبرائفٍ وأمه إلى العيادةِ.

ولحُسْنِ الحظِّ وجدوا طبيبًا شابًا يعرفُ الأستاذَ رضَى، كان تلميذًا له في المدرسةِ الثانويةِ. فأدخلَه فورًا إلى غُرفةِ الإنعاشِ، متجاوزًا الإجراءات، وأعطاهُ الإسعافاتِ الأوليةَ. وخفَّتْ حِدَّةُ الأزمةِ القلبية في الحالِ.

وانفجرَ رائفُ باكيًا بعد أن زال عنه الضغطُ والتوتُّرُ العصبيُّ الشديدُ وضمَّتْهُ أمُّه إلى صدرِها مُهدِّئةً روعَه، ومطيبةً خاطرَه، وهو ينتفِضُ بين ذراعَيْها كعصفورٍ تحت المطرِ.

* * *

لم يكن رائفُ يتوقَّع أن تنتهيَ حالةُ والدِه إلى الإصابةِ بذَبْحةٍ صدريةٍ تُشرِفُ به على الموتِ! كان يسمَعُ أمَّه تعاتبُه على الإفراطِ في الأكلِ، وتعاملُه بقَسْوةٍ ليست في طبعِها، تَصِلُ أحيانًا إلى حدٍّ غير معقولٍ، كأنْ ترفَعَ صَحْنَ الأكلِ من أمامِه، أو تنزعَ قطعةَ حلْواءٍ من يدِه وهي في طريقِها إلى فمِه!

وكان الأستاذُ رضَى قد أصبح بعد زيادةِ وزنِه السريعةِ هدفًا للتنكيتِ والتفكُّهِ. مازحَهُ أحدُ أصدقائِه مرة بعد أن بَعَجَ بطنَهُ المنتفخةَ، وقال:

– أنت لا تحتاجُ إلى سيارةٍ ولا إلى ركوبِ حافلةٍ، إذا أردتَ التنقُّلَ فما عليك إلا أن تلتفَّ في لِحافٍ مطَّاطي، وتتدحرجَ إلى حيثُ تريدُ!

وقال آخر:

– مشكلتي مع رضى هي أنني لا أعرفُ هل هو واقِفٌ أم قاعدٌ، الارتفاعُ هو هو!

وكان الأستاذُ رضى يتقبَّلُ دُعباتِ أصدقائِه بروحٍ رياضيةٍ، ويكون أكثرَهم ضحِكًا لها...

* * *

أدركَ رائفٌ بغموضٍ أن والدَهُ كان يعاني من أزمةٍ نفسيةٍ حادَّةٍ... كان الأستاذُ رضَى حمدانُ حارسًا عامًّا بأحدِ المعاهدِ الكُبرَى. وكان رجلاً طيبًا ليِّنًا شديدَ التديُّنِ والاستقامةِ. وكان يحِبُّ عملَه في التعليمِ، ويعدُّهُ واجبًا مُقدَّسًا، وليس مجرَّدَ مصدرٍ للرزقِ.

لاحظ رائفٌ أنَّ وزنَ أبيه يزدادُ بسرعةٍ، وأن مرَحَهُ ينضُبُ، وفتراتِ صَمْتِه وانطوائِه تطولُ. واكتشف أنه كان ينزلُ بالليلِ لغزْوِ الثلاجةِ والْتهامِ ما فيها من فواكهَ وحلْوياتٍ.

وضبطتْه زوجتُه عزيزةٌ مرةً في المطبخِ وهو يحشُو فمَه بقطعةِ حلواءٍ كبيرةٍ، ويزْدَرِدُها بسُرعةٍ، وكأنَّهُ لص يخشى الفضيحةَ! ونزعتِ الصَّحنَ من يدِه وأخذت تُعيِّرُه بنَهمِه وانتفاخِه وتَدَلِّي بطنِه!

وكان رائفٌ تلكَ الليلةَ ساهرًا يستعدُّ للامتحانِ، فجاءه صوتُ أمِّه وهي تقترحُ على والدِه عرضَ نفسِه على طبيبٍ نفساني. وسمِعَ والدَهُ يقولُ لها:

– لا حاجة بي إلى طبيبٍ نفساني، أنا أعرفُ سببَ

عُقْدتي، ومُشكلتي هي أنني عاجزٌ تمامًا عن حَلِّها!

* * *

وجلست عزيزةٌ وقد اختلطتْ في نفسِها مشاعرُ الشفقةِ على زوجِها والفضولِ لمعرفةِ عُقدَته.

ووجد رائفٌ نَفْسَهُ ينصرِفُ عن الكتابِ الذي كان يقرأُ فيه، وينزلُ إلى المطبخِ، وينضمُّ إلى أمِه في الاستماعِ إلى حديثِ والدِه. قال الأستاذ رضى:

«سببُ عُقدتي هو الوضعُ الشائنُ السائدُ بالمعهدِ. فقد اكتشفتُ أن مديرَ المعهدِ ومقتصِدَه* لِصَّانِ كبيرانِ. وقعت في يدي بالمُصادفةِ بعضُ دفاترِ الحساباتِ فاكتشفتُ سرِقاتٍ كثيرةً خطيرةً، بدأَتْ منذُ سبعةَ عشرَ عامًا، واستمرَّت إلى اليوم. وبعمليةٍ حسابيةٍ بسيطةٍ وجدتُ أن المديرَ والمقتصدَ سَرَقا مئاتِ الملايينِ من الدراهم!

«وفتحتُ عينَيَّ وأذني لأعرفَ أين كانت تذهبُ كل تلك الملايينِ، ففوجِئتُ بأنني كنتُ أعمَى وأَصَمَّ، وأن أساتذَةَ

---

* المقتصد: المدير المالي للمعهد.

المعهدِ والمستخدَمين، بل وحتى الطلبةَ، كانوا يعرفونَ ما يجري في غفلةٍ منّي، أنا الحارسُ العامُّ، من نهبٍ منظَّمٍ لميزانيةِ المعهدِ!

واكتشفتُ أن زوجةَ المديرِ كانت موظفةً معنا بدرجةِ كاتبةٍ، ولم تكن تحضُرُ إلا مرةً في الشهرِ لأخْذِ أُجَرتِها والاختيالِ على الأستاذاتِ البائساتِ بفَسَاتينها الباريسيةِ المُمْضاةِ من أشهرِ دورِ الموضةِ، وبِحُلاَها الثمينةِ وعطورِها النادرةِ وأحذيتِها الإيطاليةِ الشهيرة... كما كانت تُرْغِمُهُنَّ على شراءِ بعضِ السلعِ التي تُتاجرُ فيها بجميعِ وسائلِ الترغيبِ المبطَّنِ بالتهديدِ بالنقلِ أو الفصلِ!

« وعلمتُ أنه كان يقتسمُ مع بعضِ الموظفين عديمي الضميرِ أجورَهُم لقاء سكوته عن تغيُّبهم الدائمِ!

« واكتشفتُ أنه كان يستولي على أكثرَ من ثُلُثَيِ الموادِّ الغذائيةِ الموجهةِ إلى الطلبةِ الداخليين الفقراءِ من أبناءِ الضواحي والقُرى، ويبيعُها لبعضِ التجّار من عديمي الذِّمَّةِ والضمير.

« وعلمت أنه بَنَى عماراتٍ، واشتَرَى عقاراتٍ، وأسَّسَ

روضَ أطفالٍ بموادِّ المعْهَدِ وأثاثِهِ، وأنه كان يقضي هو وأسرتُه شهريْن من كلِّ سنةٍ بالخارجِ في أغلَى المنْتَجَعاتِ السياحيةِ بأوربا وأميركا والشرق الأقْصَى...

«وعرفتُ أن المقتصِدَ اشتَرى في قريتِه مزرعةً ضخمةً، وزوَّدها بكلِّ ما تحتاجُ إليهِ مزرعةٌ عصريةٌ من عُدَّةٍ وآلاتِ حرثٍ وزرعٍ وحصْدٍ وسقيٍ وزرائبَ للبهائمِ، واشترى مئاتٍ من الأبقارِ الهولانديةِ والسويسرية الحلوبِ...»

وتوقف الأستاذُ رضى حمدانُ عن الكلامِ ليستريحَ، وكأنه كان يركُضُ، وصبَّتْ له زوجتُه كأسَ ماءٍ، فرشفَ منها لِيَبُلَّ لسانَهُ، وأضاف:

«يستحيلُ الإحاطَةُ بجميع سرقاتِ المجرَميْنِ، فقد امتدَّتْ على طولِ سبعَ عشرةَ سنةً، أَمِنَا خِلالَها التفتيشَ والمحاسبةَ، وَفَقَدا الإحساسَ بالحياءِ والخوفِ، خوفِ اللهِ والناسِ! ونَسِيَا التستُّرَ والاحتياطَ، وأصبح النهبُ عندهما عملاً عاديًا...

«ومِنَ دناءَتهما أنهما كانا يرغمانِ عُمَّالَ النظافةِ والصيانة على توقيعِ تواصيلِ تسلُّمِهِم ملابسَ الخدمةِ الرسميةَ كلَّ سنةٍ،

دون أن يتسلموها. فكانوا يَظْهرون في المعْهَدِ في أسمالٍ باليةٍ كالمُتسوِّلين. وفي أيام الشتاءِ كانت جلودُهم تَزْرَقٌّ من البردِ، ولا يتحرَّكُ في قلْبَيْ اللِّصَّينِ لهُم وَتَرُ رَحمةٍ أو حياء! أما موادٌّ النظافةِ فلم تدخُلِ المدرسةَ منذ زمنٍ بعيدٍ، فكان الكنَّاسون يكنِسون بسَعَفِ النخيلِ.

« وعثرتُ في دفاترِ الحساباتِ على فاتورةٍ لخمسةٍ وعشرين مليونًا أرسلتها الوزارةُ مُنْذُ عشرِ سَنَواتٍ لترميمِ سورِ المعهدِ وتجديدِ حديقتِه. ولحدِّ الساعةِ ما يزالُ السورُ القديمُ المتداعي كما كان! وما تزالُ الحديقةُ بقعةً جرداءَ تؤذي العينَ والذوقَ!

« أما بيت القصيدِ والجريمةُ الكبرى فهي سرقتُهُما لأدَوَاتِ المخْتَبَرِ الغاليةِ من مجاهرَ وأدواتِ تحليلٍ وموادٌّ كيماوية، ونَهبْهُمَا لمكتبةِ المعهدِ الغنيَّة بالمراجع العلمية، وبيعُ كلِّ ما كان فيها من مئاتِ المجلَّداتِ النفيسةِ، كالقواميسِ والموْسوعاتِ وأُمَّهاتِ الكتبِ التي تركَها الفرنسيون، منذُ عهْدِ الحماية، وأصبحت قطعًا متحفيةً نادريةً تُساوي مبالغَ طائلة!

« أما قِطَعُ الأثاثِ القديمةُ التي أصبحت تعدُّ — لِقِدَمِها هي

الأخرى – من النفائس العتيقةِ، فقد نقلَها كلَّها إلى بيتِه، وعوَّضها بقطعٍ بشعةٍ رخيصةٍ من سوقِ البالي!

« وبلغت به الوقاحةُ أن سرَق من مكتبِي – أثناءَ عطلةِ الصيفِ – منْضَدَةً عتيقةً ثقيلةً من خشبِ الوردِ، ومرْفَعًا منقوشًا ومُزخْرفًا بالألوانِ، وجاءني بدلَهما بطاولةٍ من موائدِ المقاهي البلديةِ الرخيصةِ المستعملةِ. فلما خاطبتُه فيهما بعد عودتي من العطلة قال لي: إنهما سُرِقَا. وبعد ذلك بأسبوعٍ ذهبت إلى روضِ أطفالِه، فوجدتُهمَا هناك! ولم يكلِّف نفسه حتى عناءَ الشرحِ الكاذبِ!

« وعلى ذكرِ المقاهي اكتشفتُ في الدفاترِ أنه اشترَى لقاعةِ الاجتماعاتِ الكبَرى عدداً من الكراسي الجِلديةِ المبطَّنةِ الفاخرةِ. وحين ذهبتُ لرؤيتها، وجدتُ كراسيَ باليةً مستعملةً من نوعِ كراسي المقاهي البلديةِ الوسِخَة المهترِئةِ! »

وتوقف الأستاذُ رضى يستردُّ أنفاسَه، فسأله رائف، وهو يحاولُ كَظْمَ غيظهِ:

– كلُّ هذا، يا أبي، وأنتَ ساكتٌ!؟

- وماذا عساني أفعلُ؟

- تكتبُ إلى الوزارة!

- إذا كتبتُ أصبحتُ أنا المجرمَ، وعُوقِبتُ بالتوبيخِ أو النقلِ إلى قريةٍ نائية...

- كان يمكنك أن تكتُبَ باسمٍ مُستعارٍ، أو بدون توقيعٍ بالمرَّةِ!

- لقد كتَبَ غيري من قَبْلي. وذهب عددٌ من الشكايات إلى الوزارةِ، فوقعَتْ على آذانٍ صمَّاءَ. وجاء من أخبرني بأن المديرَ يبعثُ على رأسِ كلِّ شهرٍ شاحنةً تحمِلُ الهدايا والموادَّ الغذائية المسروقة إلى كبارِ الموظفين بالوزارةِ لشراءِ صَمْتِهم وتواطئهم. ولم يكتفِ المرتَشُون بالصَّمتِ عن فضائحِه بل امتدَّتْ أيديهم إلى أَحَدِ الأساتذةِ الشبابِ المثاليين تجرَّأَ على انتقادِ الفسادِ، وشكَّ المديرُ في أنه صاحبُ الشكاياتِ، فنقلوه إلى قريةٍ منسية في قرونِ الجبالِ، لا يصلُها ماءٌ ولا كهرباءُ ولا مواصلات...

وأحسَّ رائفٌ بحقيقةِ شعورِ والدِه، وبالمعركةِ الدائرةِ بين

ضميرِهِ وواجبِه الأخلاقي من جهةٍ، وبين واجبِه نحو نفسهِ وأُسرَتهِ. فكان لا يعرفُ كيف يُفرِغُ إحباطَه وعجزَه عن تغييرِ المُنكَرِ إلا بالإفراط في الأكل! فأُصيبَ بداءِ السكَّري وضغطِ الدمِ واحتِشاءِ الشرايين الذي انتهَى به إلى المستشفى.

وأحسَّ رائفٌ بخطرٍ غامضٍ، وبأنه مُهَدَّدٌ، ليس في حياةِ والدِه العزيزِ فقط، بل وفي حياتِه هو كذلك! فهو إذا ماتَ والدُه سيضطرٌّ للانقطاعِ عن الدراسةِ والخروجِ إلى سوقِ العملِ الشحيحةِ لكسْبِ عيشِهِ وعيش والدتِه. سيستيقظ بصدمةٍ هائلةٍ من حُلْمِه الجميلِ، حلمِ إتمامِ دراستِه والسفر إلى الخارجِ للدراسة العُليا والاختصاص...

ونام تلك الليلةَ نومًا مضطربًا عامرًا بالكوابيس.

* * *

وفي الثالثةِ ليلاً استيقظَ على صراخِ أمه وهي تُعْوِلُ وتولولُ، فخرج من فراشه، ونزل إلى غرفتِها فوجَدَها تبكي وتنوحُ بحرقةٍ على جثَّةِ والدِهِ الميِّتِ، وقد حَلَّتْ شعرَها، وأدمَتْ وجهَها باللَّطْمِ والندْبِ!

ومرت مراسيمُ الجنازةِ أمام عينيه وهو مخدَّرٌ كأنها جنازةُ غريبٍ. وامتلأتِ الدارُ بالناس الذين كانوا ينحنُون عليه، ويفتحون أفواهًا كأفواهِ السمكِ، ولا يقُولون شيئًا...

وقبل حملِ الميت إلى مقرِّهِ الأخيرِ، كشفوا له عن وجهِ أبيهِ ليقَبِّلَ رأْسَه ويودِّعَه الوداعَ الأخيرَ. وفوجئَ رائفُ بالرأسِ دافئًا. وقبلَ أن يُعيدَ الغطاءَ على الوجهِ خُيِّل إليه أنه رأى والدَه يبتسمُ له ويغمِزُه بعينهِ اليُمنَى! وحين أرادوا إقفال التابوتِ عليهَ تَشبَّثَ رائفٌ بغطائهِ، وأخذ يصيحُ: «لا! لا! أبي ما يزالُ حيًّا! إنه حيٌّ، واللهِ العظيم!»

وأبعدوه بالقوةِ، وأخذوا التابوتَ على أكتافِهم، وهم يردِّدون الشهادتين بأصواتٍ حاسِمةٍ، غيرِ عابئين باحتجاجهِ وصُراخِهِ المقَطِّع لنِياطِ القلبِ، فسقطَ مغشيًّا عليه...

*   *   *

وأفـاق على صـوتِ أمـهِ وهي توقِظُه من كـابوسٍ مُـفْـزِعٍ وترِّدد: «اللهُ مَعَك، يا ولدي، اللهُ معك!»

وأدرك أنه كـان يبـكي بِحُـرقةٍ في نومِه. وحين فتحَ عينيه فُوجِئَ بوجهَيْ أمهِ وأبيه يُطلاَّن عليه من فَوقُ، ويهدِّئانِ روعَه. ونظر إلى وجهِ والدِه غيرَ مصدّقٍ وكأنه يسألهُ: «أما زلتَ على قيدِ الحياة!؟ ألم يدفنوك!؟»

ولم يملكْ أن طوَّقَ عُنقَه بذراعَيهِ، وانخرطَ في النحيبِ والشهيقِ من جديد... وحين سألاه عمَّا رأىَ في حُلْمِه لم يستطع أن يحكيَه لهُما. كان أفظعَ من أن يُحْكَى!

كان ذلك الصباحُ أسعدَ أيام حياتِه! فقد اكتشف قيمةَ شيء لم يكن يعرفُه، قيمةَ حياةِ والدَيه، وقيمةَ الوقتِ، وعددَ الفرصِ التي يمكنُ أن تَضيع عليه إذا هو لم يغتنِمْها في حياةِ والديه...

وذهب إلى المدرسة مسروراً. وطولَ طريقِ ذهابهِ وإيابهِ كانت فكرةٌ واحدةٌ تشغَلُ بالَه، كيف ينقِذُ والدَه من وضعِه القاتل؟

وبعد العَشاءِ انسحبَ إلى غُرفتِه. ولم يستطعْ المراجعةَ، فأوَى إلى فراشِه مبكّرًا وذهنُه يشتغِل لحلٍّ المشكلةِ حتى أخذَه النومُ.

*   *   *

وفي الفجْر أيقظتْه فكرةٌ نزلت عليهِ من السماءِ كإِلْهامٍ أو وَحْيٍ من اللهِ، فقام في الحالِ لتنفيذِها.

وحين أشرقتِ الشمس كان قد أعدَّ شهادةً بخطٍّ جميلٍ داخل إطارٍ مزخرفٍ أنيقٍ عنوانُها: «شهادةُ تقديرٍ وامتنانٍ إلى الأستاذِ عبدالجليلِ الهيُّوفي مديرِ معْهَدِ التكوين» وكتب تحته:

«هذه شهادةٌ من جميعِ أساتذةِ وطلبةِ ومسْتَخْدَمي «معهدِ التكوين» لمديرِ معهَدِهم ليُعَلِّقها في صدْرِ بيته، ويتركَها لأولادهِ وحفَدَتِه من بعدِه، ليفتَخروا بسيرتِه، ويسيروا على خُطاهُ، وليَلْقَى بها ربَّه يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه، ويومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا مَن أَتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، ولتوزِّعَها الوزارةُ على جميعِ مديري مدارسها وموظفيها، ولتُنشر في الصحفِ، وتُناقَشَ في وسائلِ الإِعْلامِ. فالأستاذ عبدُالجليلِ الهيُّوفي هو أكبرُ لِصٍّ وخائنٍ للأمانةِ عرفَه المعهدُ منذ كان. فقد سرَقَ بالاشتراكِ الفعَّالِ والتآمُرِ الخبيثِ مع المقتَصدِ الجيلالي الكِرشاوي كذا وكذا...»

وعدَّد أكبرَ وأهمَّ السرقاتِ التي سمِعها من أبيه في صفحة واحدةٍ. كتبها بالحبْرِ الصينيِّ، وجعلَ نُقَطَ الحروفِ باللونِ الأحمرِ. وفكَّر طويلاً في أيِّ توقيعٍ سيُذَيِّلُها به. فكَّرَ في توقيعِها بجماعةٍ من أساتذةِ المعهدِ أو طلَبته، فخافَ أن يُؤذِيَهم. ثم إنه سيكونُ كاذبًا، والكذبُ مُنْطَلقٌ سَيئٌ للموعظَةِ الحسَنةِ!

ثم فكَّر في فاعلِ خيرٍ، ولكنه وجدَه توقيعًا مبتَذَلاً، غالبًا ما تُذَيِّلُ به الوشاياتُ، ولا يؤخذُ مأخذ الجدِّ. وخطر ببالِه أن يوقِّعَها باسمٍ مستعارٍ يخاطِبُ به ضمائرَ المسؤولين ويوقظُ إيمانَهم، ويحيلُهم على أيامِ مجدِ الإسلامِ وسُموِّ مبادئه، فوقَّعَها بـ «محمد عمر الفاروقِ.» وهو اسمٌ لا يوجدُ بالمعهدِ.

وفي أسفلِ الصفحةِ أضافَ بخطٍّ أحمرَ بارزٍ: «أُرسلَتْ نسخٌ من هذه الشهادةِ إلى الديوانِ الملكي والوزيرِ الأوَّلِ وجميعِ أقسامِ وزارتهِ وإلى وزيرِ التعليم ورؤساءِ أقسامِ وزارتهِ، خُصوصًا القسمَ المالي والاقتصادي، والسيدِ وزيرِ الداخليةِ ورُؤساءِ أقسامِه، والسيد وزيرِ العدلِ ومساعديه، ووكيلِ

الملكِ، ومديرِ الأمن الوطني، وعاملِ المدينةِ، وعميدِ شرطتِها، ونائبِ وزارةِ التعليمِ بها، وجميعِ نياباتِ التعليمِ بالمملكةِ، وإلى جميعِ الصُّحفِ الوطنيةِ الصغيرةِ والكبيرةِ والجهويةِ... »

واشتملتِ اللائحةُ على حوالَي خمسةٍ وسبعين عُنوانًا، وكان اليومُ يومَ جمعةٍ، فأفْطَرَ بسرعةٍ، وأخذ دفترَ توفيرِه، وذهب إلى البريدِ، واستخرجَ المبلغَ الذي يحتاجُه، واشترى خمسةً وسبعين طابعَ بريدٍ ومِثْلَهَا من أظرفةِ الرسائلِ المتنوعةِ الأحجامِ والألوانِ. ومرَّ بمصورٍّ وثائقٍ، وطلب منه أن يُخرِجَ له خمْسًا وسبعين نسخةً من الشهادةِ المخططةِ. وعاد إلى البيتِ، وأقفَلَ بابَ غرفتِه عليه، وجلس يكتُبُ عناوينَ المُرْسَلِ إليهم بخطٍّ مُخالفٍ لخطهِ.

* * *

قضى بياضَ نهارِه يكتبُ العناوينَ ويُلْصِقُ الأَظرِفةَ. وأوَى إلى فراشِه مُتْعبًا، ونام نومًا عميقًا. ورغم عُمْقِ نومِه رأى أحلامًا عجيبةً بدا له فيها مُديرُ المعهدِ ومقتصدُه يسيران في ساحةٍ واسعةٍ يدًا في يدٍ، وهما سعيدان يتحدثان

ويتضاحكان. وفجأةً أظلمتِ السماءُ، وبدأتْ صورايخُ ناريةٌ تنفجر فوقَ رأسَيْهِما فانطلقَا هاربين فَزِعين تطارِدُهما الصواريخ، وتنفجِرُ الألغامُ، من تحتِ أقدامِهما فتتطايرُ أشلاؤهما في الهوَاءِ، ثم تعودُ فتلْتَمُّ وتلْتَئِم. ويَعُودَانِ، مرَّة أُخرى، إلى الركْضِ بين الصواريخِ والألْغامِ.

* * *

رنَّ جرسُ الهاتفِ في مكتبِ عميدِ شرطةِ المدينةِ فإذا مديرُ الأمنِ العامِّ يناديه ليسألَه عن موضوعِ الشهادةِ. وترددَ العميد، وطلب مُهلةً للتحرِّى فقال مديرُ الأمنِ غاضبًا:

- إن كنت تعرفُ ولَمْ تفعلْ شيئًا فتلك مصيبةٌ، وإذا كنت لا تعرفُ فالمصيبةُ أكبرُ!

فاعتذر عميدُ الشرطةِ بأنه جديدٌ في المدينةِ، وأنه لم يطَّلِعْ بعد على جميعِ الملفَّاتِ. وسمِع خَبْطَةَ سمَّاعةِ رئيسِه الغاضبِ، فصاح بمساعديه...

* * *

وكانت ثاني رسالةٍ وصلت هي التي بعثَ بها إلى اللصَّين الكبيرين، مديرِ المعهدِ عبدالجيلِ الهيوفّي وشريكِه المقتصدِ الجيلالي الكرشاوي. تسلَّمتها زوجةُ المديرِ التي تصادفَ وجودُها في مكتبِ كاتبتهِ ذلك الصباحِ، ففتحتها، وبدأت تقرأُ المقدِّمةَ الجميلةَ المضلِّلةَ. وأحسَّت بسرورٍ وفخرٍ. ولم تنتظرْ حتى تُتِمَّ قراءَتها، فنادت زوجَها الذي كان مشغولاً في مكتبِه بعملٍ ما. وحين لم يستجِبْ، نهضت ودخلت عليه مُلوِّحةً في وجهِه بالرسالةِ، وهي تقول:

- اسمعْ، أيها المتشائمُ الذي تُردِّدُ دائمًا أن أهلَ المعهدِ يكرهونك ويحسدُونَك على نعمَتِك، ويشتكونك للوزارةِ!

وبدأت تقرأ الرسالةَ بصوتٍ خَطابي! ولكنّها لم تلبثْ أن توقفتْ عنِ القراءةِ، وكأن يداً قويةً أغلقت فَمَها! وأكْفَهرَّ وجهُها، وغضِبت غضبًا شديداً وهمَّت بتمزيقِ الرسالةِ. وخطَفَها زوجُها من يدِها، وقرأها بسرعةٍ وكأنه كاتِبُها وبدا عليه الانزعاجُ الشديدُ، وقال:

- كاتبُ هذه الرسالةِ لابد أن يكونَ من أساتذةِ المعهدِ أو طُلاَّبه!

وحرك رأسَه وأضاف:

- إنها مصيبةٌ! مصيبة كبيرة!

وظهرت عليه الحيرةُ والارتباكُ، فقالت زوجتُه مطَمْئنةً:

- وماذا!؟ إذا وصلت إلى الوزارةِ فسيكونُ مصيرُهاَ مثلَ مصيرِ بقيةِ الشكايات التي كُتِبتْ بك، سَلَّةُ المهملات! فالوزارة كلُّها آكلةٌ شاربةٌ معك! وإذا لوَّح لك بها مسؤولٌ بالوزارةِ فَلِكِي يَمُنَّ عليك بالتَستُّر على أعمالِك، وليستزيدَك من الهدايا، لقاء صَمْتِه، كما فعل طِوال هذه السنوات!

فحرك رأسَه غير مُوافقٍ، وقال:

- ما كلُّ مرةٍ تسلَمُ الجَرَّة! كاتب هذه الرسالةِ أو الشهادةِ الخبيثةِ أذكَى من كاتبي الرسائلِ البليدةِ السابقة!

- وما الفرقُ؟ هل لأنه كتبَها في شكلِ شهادة؟ هذا سيجعلُ منها مجرَّدَ نكتةٍ لا تستحقُّ الالْتِفات!

فحرك عبدُ الجليل رأسَه مخالفًا:

- لا، ليس لشكلِها، ولكن للجهاتِ والمسؤولين الذين وُجِّهتْ إليهم! ومدَّ إليها الورقةَ وأشارَ إلى أسفَلِها:

ـ اقـرئي! هـذا الخـبـيـثُ جـعـلَ من المسـتـحـيلِ على أيٍّ مسؤولٍ تجاهُلَها! وكلٌّ من ستصلُه سيعمَلُ على تبرِئَة ذِمَّتهِ بالقيام بواجبِ التحرِّي، خشية اتهامه بالتواطُؤ...

وأحس بالدمِ ينسحِبُ من رأسِه، وبأنه سيُغمَى عليه. وأخذت يدُه ترتعشُ ارتعاشًا قويًا حتى سقطتْ منها الرسالةُ. ولاحظت زوجتُه ارتعاشَه وشُحوبَ وجهِه فسارعت إلى الإمساكِ بيدِه ومُساعدتِه على الجلوس. ثم أسرعت إلى إقفالِ الباب حتى لا يُفاجئَهما أحدٌ كذلك، وعادت إليه تهوِّنُ عليه:

ـ ماذا يخيفُك!؟ كلُّهم لصوصٌ! وحتى لو بُعِثَ سيدنا عمرُ بن الخطابِ من جديدٍ فلن يبدأَ منك! فهُناك من يسرقون في يوم واحدٍ، بل في ساعةٍ، ما سرَقتَه أنت في سبْعَةَ عشر عامًا! فاطمَئِنَّ، فلن يصلَك الدورُ إلا بعدَ قرنٍ من الزمانِ! ثم إنك تعرِفُ إدارةَ البلدِ، لا أحدَ يريدُ تحمُّلَ المسؤوليةِ. وكل مسؤولٍ يمرِّرُ الشكايةَ بورقةِ إرسالٍ إلى رئيسهِ ليتخلَّصَ منها. وكلما ارتفَع مستَوى المسؤولِ قلّ اهتمامُه بهذه التوافِه، وأمر

أعوانَه بعدمِ إضاعَةِ وقتهِ الثمين بها وتوفيرِه لما هو أهمٌّ، مثلَ تدْبيرِ مصدرٍ جديدٍ لتسْمين رصيدِهِ البنكي!

وقاطعَ خطبتَها رنينُ جرسِ الهاتفِ، فرفعت السماعةَ، ونبحت فيها بانفعال:

– من يطلُبه؟

ثم غيرت لهجتها المتجبِّرَة بسرعة إلى لهجةِ تلطف ومَسْكَنَةٍ:

– نعم، حالاً سيّدتي؟ فوراً سيدتي!

ومدَّتِ السماعةَ إليه هامسة:

– كاتبةُ النائبِ، نائبِ وزارةِ التعليم.

وأنصتَ لحظةً وهو يردِّد:

– نعم سيدتي! نعم سيدتي!

ثم وضعَ السماعةَ، وقد تبخَّر التفاؤُل الذي كانت زوجتُه أعادَته إليه. وقال:

– إنه يريدني الآنَ في مكتبِه!

– ألم يقُلْ لك لماذا؟

ولم يكد يجيبُ حتى رنَّ جرسُ الهاتفِ مرة أخرى، فإذا به كاتبُ وكيلِ الملكِ يطلبُهُ للحضورِ حالاً في المحكمةِ لأمرٍ هامٍّ!

واحتار في أيِّ الاستدعاءين يُلَبِّي أولاً . . .

وبينما هو واقفٌ بين المكتبين يتردَّد، وقد عاد إليه الارتعاش، إذْ وقف شرطيان بالبابِ، وطلبا منه مرافقتَهما في الحال إلى مكتبِ عميدِ الشرطة.

وحسمَ وجودُهما موقفَه المتردِّدَ. وخرج بينهما تحت أنظارِ جميعِ الأساتذةِ والطلبةِ الذين خرجوا إلى قاعةِ الاستراحة. ورن الهاتفُ مرة أخرى من مكتب العاملِ فلم يجبْه أحدٌ. كانت زوجةُ الهيوفي قد خرجت خلْف زوجِها تَدُقُّ بيدها على صدرها في عويلٍ صامت!

* * *

وفي مفوَّضيةِ الشرطةِ أدخَلَه الشرطيان إلى مكتب مفتشٍ لم يكن رآه من قبلُ. ووجدَ معه الحاجَّ إبراهيم بائعَ الجملةِ الذي كان يشتري مسروقاتِ المعهدِ وأمامَه الشهادةُ التي وردَ فيها اسمُه، فهبَطَ قلبُه!

ولم يُجبِ المفتشُ على سلامِه، ولم يَدْعُه للجلوسِ، بل بادَره بقولِه:

- بما أنك رجلٌ تعليمٍ، وإن كان وجودُك في التعليمِ إهانةٌ لهذه المهنةِ الشريفةِ، فأنا أتوقَّعُ منك التعاوُنَ الكاملَ في هذا التحقيقِ، حتى لا نُضطَّر إلى إنزالِك إلى القبوَ، ومعاملتِك كما نُعامِل أمثالَك من اللصوصِ وقُطَّاعِ الطُّرُقِ! وقد اعترفَ شريكُك هذا بكلِّ شيءٍ...

وقف الهيُّوفي كطفلٍ مذْنبٍ أمامَ مُعلِّمه الناقمِ عليه، ورُكبتاهُ ترتعدان بشدَّة، وهو عاجزٌ عن الدفاعِ عن نفسِه.

ولم يخرجْ من المفوضيةِ حتى أمضَى محضرَ اعترافٍ مُفصَّلٍ، حملَه المفتشُ إلى العميدِ الذي أرسلَه في الحالِ بالفاكسِ إلى مديرِ «الأمنِ الوطنيِّ» بالعاصمةِ.

وأصبحَ المديرُ اللصُّ فجأةً مطلوبًا من كلِّ سلطةٍ معنيَّةٍ في البلدِ، وصار أكثرَ تنقُّلاً بين المصالحِ من سائقِ سيارةِ أُجرَةٍ!

* * *

أما رائفٌ، فقد جاء لزيارةِ والدِه المريضِ بالبيْتِ ثلاثةٌ من أصدقائهِ الأساتذة، وقد تهلَّلت وجوهُهم، وكأنهم يحمِلُون إليه بُشْرى بالجنةِ! وجلس معهم رائفٌ يُنصِتُ إلى همسِهم اللذيذِ . . .

فقد جاءت لجنةُ تفتيشٍ كبيرةٌ من الوزارةِ، واخْتَلَت بالمديرِ والمقتصدِ كلٌّ على حِدَةٍ لاسْتِجْوابهما. واستولَتْ على جميعِ وثائقِ المعهدِ. ثم اختلَتْ ببعضِ الأساتذةِ القدماءِ وعمّالِ الصيانةِ لأخْذِ أقوالِهم.

وطافت بجميعِ نواحي المبنَى التي طلبَ المديرُ ميزانيةً ضخمةً لِصِيانَتِها أو إعادةِ بنائها، مثلَ سورِ المدرسةِ وحديقتِها والأثاثِ وملابسِ العمَلِ والمُختَبرِ والمكتبة، وقارنوا الموجوداتِ الحاليةَ بالقديمةِ أو بقائمةِ المشتريات التي ادَّعَى المديرُ أنه اشتراها! فكانوا يُهَمْهِمُون ويحرِّكُون رؤوسَهم حنَقًا على المديرِ المجرمِ. ثم أخذوا يتلاوَمُون بأصواتٍ مكبوُتَةٍ، ويتَّهِمُ بعضُهم بعضًا بالإهمالِ والتفريط!

وحين همُّوا بالذهابِ دعاهم المديرُ لتناولِ الغَدَاءِ في بيتِه،

فرفضوا وذهبوا إلى مطعم. وحاول الاختلاء برئيسِهم ليقدمَ له هديةً، فرفض هذا الاختلاءَ به، وطلب منه أن يقولَ له ما يريدُ قولهَ أمامَ جميعِ أعضاءِ اللجنةِ، فتذبذبَ وانكشفَتْ لعبَته للجميع!

* * *

واتصل عـدد من المحـامين العـاطلين من عـديمي الذِّمَم بزوجته، يعْرِضون عليها الدِّفاعَ عنه، وزارَه عددٌ من سماسرة السلطةِ واستغلالِ النفوذ، يعرِضون عليه إخراجَه من الورطة كالشعرةِ من العجين، مُقابلَ عمارةٍ أو مبلغٍ ضخمٍ لشراءِ العفوِ عنه،أو تخفيفِ الحُكْم.

وسارعتِ الدولةُ إلى حجْزِ جميعِ ممتلكاته حتى لا يتصرَّفَ فيها قبلَ مُحاكمتِه... وأُسْقِطَ في أيدِي جميعِ الشُّفَعاءِ والمحامين النصَّابين، وانفضُّوا عنه انفضاضَهم عن مُصابٍ بالسيدا!

وادَّعَى المقتصِدُ أنه كان مجرَّدَ مُنفِّذٍ لأوامرِ المديرِ، وأن المديرَ هو الذي كان يُغرِيه بأَخْذِ نصيبِه من المسروقاتِ حتى يُورِّطَه ويضمنَ تعاوُنَه وسُكوتَه.

وكشف عدداً من السرقاتِ التي لم تَرِد في صكِّ الاتِّهام!

وكانت محاكمةُ اللصين أكبرَ محاكمةٍ شهِدَتْها المدينةُ نظراً لارتباطِ الأهالي بالمعهَدِ عن طريقِ أبنائِهم، ولوُقُوعِ الفضيحةِ في مُؤسَّسةٍ تعليميةٍ كانوا يُكنُّونَ لها التقديرَ والاحترامَ.

وحُكِمَ على كلٍّ من المديرِ والمقتصِدِ بخمسِ سنواتٍ سجنًا، وبطَرْدِهما من المعهَدِ والوزارةِ، وبشطْبِ اسْمَيْهِما من لوائحِ الوظيفةِ العموميةِ... وكانت الكلمَةُ التي ختمَ بها القاضي الجلسةَ قبل النُّطقِ بالحُكمِ مؤثِّرةً للغايةِ. قال مُوجِّهًا كلامَه للجانيين وللجمهورِ الغفيرِ:

«إن الجريمةَ التي يرتكِبُها رجل ينتمي إلى أُسرةِ التعليمِ تُساوي أضعافَ الجريمةِ نفسِها إذا ارتكَبَها شخصٌ من عامَّةِ الناس ! فالناسُ يرونَ على رأسِ أسرة التعليم هالةً من التقدير والتقديسِ والثقةِ. وهي قُدوةٌ للجيلِ الصاعدِ، إذا صلُحَتْ صلُحَ، وإذا فَسَدَتْ فسَدَ. وهي واجهَةُ البلادِ المشرِّفةُ، ومصدَرُ فخرِها واعتزازِها وآمالِها في المستقبلِ. والمعلِّمُ هو الأبُ الروحِيُّ للطفلِ، والمؤْتَمَنُ على أخلاقِه وسُلُوكِه بعد أبويْهِ، لدرجةِ أن أميرَ الشعراءِ أحمدَ شوقي بِك قال في المعلِّمِ:

قُمْ للْمعلِّمِ، وفِّهِ التبجيلا .. كاد المعلِّمُ أن يكُونَ رسولا
أعرفت أشرف أو أجل من الذي .. يبني ويُنشِئُ أنْفُسًا وعقولا

فانحرافُ المعلمِ خيانةٌ عظمَى لأمانةِ الأمَّةِ، يستحقُّ عليها الإعدامَ. ولو سمَحَ لي القانونُ بتوقيعٍ تلك العقوبةِ عليكما لما تردَّدْتُ. ولكن العقوبةَ الحقيقيةَ تنتظرُكُما في السجنِ وبعدَ الخروجِ من السِّجنِ. سينتقِمُ منكما السُّجناءُ أثناءَ السجنِ، وسيحتَقِرُكُمَا الناسُ بعد خروجِكُما. وستَتَمنَّيانِ لو أن هذهِ المحكمةَ حكمتْ عليكُما بالإعدامِ!»

وبعد أن نطقَ بالحُكم علَّق قائلا:

«هذه أحكامٌ مخفَّفةٌ. فأنتما تستحقَّانِ أضعافَها. وقد راعيتُ فيها ظروفَ تخفيفٍ متعدِّدَةً، وعلى رأسِها إهمالُ الإدارةِ وتقصيرُها في مراقبةِ ظروفِ موظَّفيها وردْعِهم عند ارتكابِ أبسطِ جُنْحَةٍ! وأملُ هذه المحكمةِ أن تنتبهَ الدولةُ إلى آفةِ التخلِّي عن المسؤوليةِ التي انتشرت بين المسؤولين بشكلٍ وبائي، وجعلت البلادَ كلَّها تدورُ في فراغٍ كبيرٍ!»

وضرب بمطرقَتِه منهيًا الجلسةَ، فضجَّتِ القاعةُ بالتصفيق...

واقتيدَ المجرمانِ مُكبَّلَينِ إلى سيارةِ السجنِ تحت نظراتِ احتقارِ الجمهورِ وتوبيخِه...

*　*　*

وبعد المحاكمةِ مباشرةً ذهب جماعةٌ من أصدقاءِ رضَى حمدانَ، من الذي تتبَّعُوا وقائعَ المُحاكمةِ، إلى بيتِه، فاستقبلَهم رائفٌ، وقدَّمت لهم أمُّهُ الشايَ والحلْواءَ، فجلسوا يَحْكون لرضَى عن المحاكمةِ بحماسٍ، مذكِّرين بعضَهم بعضًا بما نَسُوه من تفاصيلَ هامَّةٍ.

وكان لحكاياتِهم مفعولٌ سِحري على صحَّةِ رضى، فنزل من سريرِه، وجلس بين أصدقائِه يُنْصِتُ إليهم بالْتذاذٍ كبيرٍ، وقد عادت إلى نفسِه الثقةُ بعدالةِ بلادِه، وإلى وجهِه ابتسامةُ الأملِ والرضى والعافيةِ...

وبعد انتهاءِ الأساتذةِ من سرْدِ وقائعِ المحاكمةِ، أخذوا يتساءلون:

« من يا تُرى وراءَ هذه الضجَّةِ الكبيرةِ، وهذه الفضيحةِ التي قضت على إمبراطوريةٍ من أكبرِ إمبراطورياتِ الفسادِ من نوعِها وحَجْمِها وطولِ بقائِها، رغمَ ما كتَبهُ كل أُستاذٍ على حدةٍ للوزارةِ عنِ المديرِ والمقتصِدِ المنحرفَيْنِ، وبدونِ علْمِ أقْرَبِ الناسِ إليه!؟»

وشعُرَ رائفٌ، وهو يُنصِتُ إلى حديثِ الأساتذةِ، بفخْرٍ كبيرٍ واعتزازٍ عارمٍ بذكائه الذي أطاحَ بإمْبراطورية الفسادِ هذه، بعد سبعةَ عشرَ عامًا من الطغيانِ والاستهزاءِ بالقانون. وأوشكَ أن يكشِف عن هُويَّةَ الفاعل، ولكنه تراجعَ، حتى لا يظُنُّوا بعقِله الظنون. فهُمْ لن يصدِّقُوه أبداً. إذا كيْف ينجحُ غلامٌ دون سنِّ الباكلوريا فيما فشلُوا هُمْ فيه طِوال هذهِ السّنْينْ!

وكَتَمَ رائفٌ سِرَّهُ العجيبَ حتى اكتشفتْه والدتهُ بالمصادَفةِ وهي تنظف غرفته لاستقبال أحَدِ الأعياد. عثرت على منشوراتِ للرسالة الخطيَّة التي كانت بمثابةِ القنبُلةِ الموقوتةِ التي اخترعَها رائفٌ وانفجرت في المجرمين!

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على عوال بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ا الحديثة للشباب في العالم العربي.



